الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ
لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ
ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا
وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا
هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن
فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

٤٩٩

سورة الجاثية

معانى الكلمات :

آيات : علامات .

يبث : ينشر ويفرق .

يوقنون : يصدقون عن يقين .

بعد الله : بعد حديث الله .

أفاك أثيم : كذاب كثير الإثم .

يصر : يقيم ويثبت .

لا يغنى عنهم : لا يدفع عنهم .

رجزا : أشد العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها .

٢ ـ أن نتعلم كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى .

٣ ـ أن نتعرف على علة الإنعام الإلهى على العبد .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها، وتعنتهم فى مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعاً كاملا فى غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذى سلطان ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية فى هذا الوجود .

ونلاحظ أن مقدمة السورة هى نفس مقدمة سورة الزمر مع زيادة حم ، وهى تشعرنا بموضوع السورة ، كما تشعرنا بأنها مظهراسمى الله العزيز الحكيم من خلال عرض معانيها ، فالله عز وجل له العزة وله الحكمة ، وهذا القرآن مجلى أسمائه كلها ، ومن ذلك : أسماء العزيز الحكيم ، وهذه السورة مجلى لظهور هذين الاسمين بشكل كامل ، ومن مظاهر عزته أنه كلف ، وأنه يحاسب ، ومن مظاهر حكمته أنه خلق الكون على هذا الكمال ، وأنزل القرآن على مثل هذا الكمال ، فهو جل جلاله متصف بكمال العزة ومتصف بكمال الحكمة .

وقبل أن يعرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ، يشير إلى آيات الله المبثوثة فى الكون من حولهم ، وقد كانت وحدها كفيلة بتوجيههم إلى الإيمان ، ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ، وحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب .

يقول صاحب الظلال : « وأى شىء ليس آية ؟ هذه السموات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ... ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها فى دقة واطراد وتناسق ، تناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تقلبه ... وكل شىء فى هذه الأرض وكل حى ... آية .. وكل جزء من كل شىء ومن كل حى فى هذه الأرض ... آية ، والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية .. هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية ، آية فى شكلها وحجمها ، وآية فى لونها وملمسها ، آية فى وظيفتها وتركيبها ، وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان آية ، آية فى خصائصها ولونها وحجمها ، وهذه الريشة فى جناح الطائر آية ، آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها ، وحيثما مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره ، ولكن من الذى يرى هذه الآيات ويستشعرها ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ لمن ؟ للمؤمنين .

فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء ، والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء ، والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف » .

وينبه السياق أن من الآيات خلقكم أيها الناس فى أطوار من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر سوى الخلقة معتدل المزاج والتركيب له سمع وبصر ونطق وفكر ، وما يخلق وما يفرق وينشر فى الأرض من أنواع الدواب والبهائم والحيوانات على اختلافها من برية وبحرية لآيات لقوم يوقنون فى إيمانهم بالله تعالى ، وفى مجىء الليل وذهاب النهار والعكس ، وطول أحدهما وقصر الآخر والعكس ، وما أنزل الله من السحاب من مطر هو سبب الرزق فأحيا به الأرض بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء ، وتصريف الرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبوراً ، فى هذه الأشياء لآيات لذوى العقول السليمة .

يقول الإمام الفخر الرازى رحمه الله : « إنه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع : أولها: يؤمنون . وثانيها : يوقنون . وثالثها : يعقلون ، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل » .

ويقرر السياق أن تلك الآيات القرآنية والكونية هى آيات الله وحججه الدالة على وجوده وموجبة لربوبيته على خلقه وألوهيته ، فهو الإله الحق الذى لا إله حق سواه ، فإذا كانوا لا يؤمنون بالله ولا بآياته فبأى شىء يؤمنون بعد ذلك .

ويقابل القرآن هذا الإنكار بالتقبيح والتهديد والوعيد ، فالويل لكل كذاب حلاف مهين أثيم فى فعله وقلبه كافر بآيات الله ، آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ، ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، وهذه الصورة تتكرر اليوم وغدا ، فكم فى الأرض وبين من يقال إنهم مسلمون مَنْ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاه ، وهذا له عند الله يوم القيامة عذاب أليم موجع ، وإذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزواً ، وله عذاب مهين فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ، وكل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ، ولا ينفعهم أموالهم ولا أولادهم ، ولا تغنى عنهم الآلهة التى عبدوها من دون الله شيئا ، ولهم عذاب عظيم فوق أنه مهين ، وحقيقة القرآن أنه هدى ، هدى خالص مصفى ، والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب شديد موجع .

ثم يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر لتجرى السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ، ولتبتغوا من فضله فى المتاجر والمكاسب ، وبالغوص عن اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطرى ، ولعلكم تشكرون على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الآفاق القاصية ، وسخر لكم ما فى السموات من الكواكب وما فى الأرض من الجبال والبحار والأنهار وجميع ما تنتفعون به ، فالجميع من فضله وإحسان من عنده وحده لا شريك له ، وفى ذلك لدلالات على الله وصفاته وأسمائه ، وهذا النوع من الآيات يعرفه الإنسان بمجرد الفكر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فضل العقل السليم إن استخدم فى الخير وما ينفع .

٢ ـ القرآن أعظم نوراً فمن لم يهتد عليه لا يرجى له الهداية أبداً .

٣ ـ على الإنسان أن يشكر ربه على نعمه ، ويصرف تلك النعم فى مرضاته ـ تعالى .

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ
قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ
فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ
أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ
شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ
﴿٢٠﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ
مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ
وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾

معانى الكلمات :

ليجزى : ليعاقب .

الحكم : الفصل بين الناس فى الخصومات .

بينات الأمر : دلائل واضحات فى أمر الدين .

بغيا بينهم : عداوة وحسداً وعناداً .

شريعة : طريقة ومنهاج .

يغنوا عنك : يدفعوا عنك .

بصائر : بينات ونور .

اجترحوا : اكتسبوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على علة كفر أهل الكتاب بالرسول ﷺ .

٢ ـ أن نعلم وجوب لزوم تطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التنازل عن شىء منها .

٣ ـ أن التفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات.

المحتوى التربوى :

يدعو السياق المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ، ورحابة الصدر فى مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثرى الغنى ، كما يدعوهم إلى شىء من العطف على هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ، من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التى يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه ، وهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله ، تسامح المغفرة والعفو ، وتسامح القوة والاستعلاء ، وتسامح الكبر والارتفاع ، والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف

أحيانا بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتماء بركنه ، واللجوء إليه فى ساعات الكربة والضيق .

هذا من جانب ومن الجانب الآخر ؛ ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ، ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة فى سجل الحسنات .

ويعقب السياق على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده فى نهاية المطاف، وبذلك يتسع صدر المؤمن، ويرتفع شعوره ، ويحتمل المساءات الفردية ، والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين فى غير ضعف ، وفى غير ضيق ، فهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، والأمر لله فى النهاية ، وإليه المرجع والمآب .

يقول الفخر الرازى رحمه الله : « اعلم أنه تعالى بين أنه أنعم بنعم كثيرة على بنى إسرائيل ، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد ، والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم ، واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا، فلهذا بدأ الله بذكر نعم الدين، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ ، والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايراً لصاحبه » .

فالكتاب هو التوراة ، والحكم هو الحكمة والفقة ، والنبوة معلومة فكان الأنبياء فيهم كثيرين ورزقهم الله من الطيبات مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ، وفضلهم على عالمى زمانهم ، وآتاهم آيات ومعجزات من أمر الدين، فما وقع الخلاف بينهم فى الدين إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب زوال الخلاف وهو العلم ، وإنما اختلفو العداوة هى أثر عن ظلم وحسد بينهم ، وسيفصل بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب على طريقة ومنهاج من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال، ودينهم المبنى على هوى وبدعة ، فأهل الهوى والجهل لن يدفعوا عنك شيئا من العذاب، والظالمون بعضهم أولياء بعض للمشاركة فيما بينهم ، والله ولى المتقين وهم موالوه ، وما أبين الفضل بين الولايتين ، ولاية الظالمين بعضهم لبعض ، وولاية الله للمتقين ، فكن أيها المسلم تقيا لله لتكون لله ولياً .

وتعقيبا على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما فى هذا القول وأمثاله فى القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل القرآن ، ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة ، فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور ، وهو بذاته هدى، وهو بذاته رحمة ، ولكن هذا كله يتوقف على اليقين ، وحين يستيقن القلب ويستوثق

يعرف طريقة فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد ، وعندئذ يبدو له الطريق واضحا ، والأفق منيراً ، والغاية محددة والنهج مستقيما ، وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين .

قال صاحب الأساس : إن مجموع هذه الآيات : « عمق موضوع كون القرآن هدى ، وذكر صفات من يهتدى به ، وشروط هذه الهداية ، وبين طبيعة الذين لا يهتدون ؛ إنها طبيعة آثمة كاذبة مستكبرة باغية جاهلة متبعة للهوى ، أما الطبيعة المهتدية فمن خصائصها الإيمان والعقل ،والفكر ، واليقين ، والاتباع ، والصدق ، والطاعة ، والإنصاف ، والعلم » .

ويعقب السياق على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين ، وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين ، وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين ، يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات ، وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون ، ويستنكر أن يسوى بينهم فى الحكم ، وهم مختلفون فى ميزان الله ، والله قد أقام السموات والأرض على أساس الحق والعدل ، والحق أصيل فى تصميم هذا الكون .

يقول صاحب الظلال : « ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم فى صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أنداداً لهم فى تقدير الله سواء فى الحياة أو بعد المات ، أى عند الحساب والجزاء ، كما يجوز أن يكون حديثا عاما يقصد بيان قيم العباد فى ميزان الله ، ورجحان المؤمنين أصحاب العمل الصالح ، واستنكار التسوية بين مجترحى السيئات وفاعلى الحسنات ، سواء فى الحياة أو فى المات ، ومخالفة هذا للقاعدة الثانية الأصيلة فى بناء الوجود كله ، قاعدة الحق الذى يتمثل فى بناء الكون كما يتمثل فى شريعة الله ،و الذى يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس ، والذى يتحقق فى التفرقة بين المسيئين والمصلحين فى جميع الأحوال ، وفى مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أو ضلال ،وفى تحقيق العدل للناس» .

قال الألوسى : « يستنبط منها تباين حالى المؤمن العاصى والمؤمن الطائع ، ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها ، حتى إنها تسمى مبكاة العابدين لذلك » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ بيان أن كفر أهل الكتاب كان حسداً للنبى ﷺ وقومه من العرب .

٢ ـ تقوى الله تكون بفعل محابه تعالى وترك مساخطة ، والقرآن كتاب هداية وصلاح .

٣ ـ التحذير من اتباع الهوى وارتكاب سنن الضلال .

الجزء الخامس والعشرين — سورة الجاثية

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
(٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)

٥٠١

معاني الكلمات :

اتخذ إله هواه : عبد هواه .

ختم : أغلق .

غشاوة : غطاء .

المبطلون : الكافرون .

جاثية : باركه على الركب .

نستنسخ : نأمر الملائكة أن يكتبوا .

فاستكبرتم : فأعرضتم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أقوال المشركين وتصورهم عن الآخرة وعن البعث والحساب .

٢ ـ أن نقف على بعض مشاهد الآخرة من خلال الآيات .

٣ ـ أن نؤمن بالبعث الجزاء وكتابة أعمال العباد وتقديمها لهم يوم القيامة .

المحتوى التربوي :

يشير السياق إلى الهوى المتقلب ، الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلها يتعبده ، فيضل ضلالا لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله .

يقول صاحب الظلال : « والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجا عجيبا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلها قاهراً لها ، مستوليا عليها ، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول ، يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أفرأيته إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب وهو يستحق من الله أن يضله فلا يتداركه رحمة الهدى فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يستعبد هواه

المريض ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ من الله باستحقاقه للضلالة أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذ إلها يطاع ، وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له فى عماه ، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ فانطمست فيه تلك المنافذ التى يدخل منها النور ، وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة الهوى طاعة العبادة والتسليم ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ ؟ والهدى هدى الله ... ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ومن تذكر صحا وتنبه ... وعاد إلى النهج الثابت الواضح الذى لا يضل سالكوه » .

وأما منكرو البعث فقالوا إن هى إلا عادات ، وجرْىٌ على رسوم الليل والنهار ، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس براجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله ، وقولهم هذا صادر عن غير علم ، فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان ، إن هى إلا ظنون ، واستبعادات خالية عن الحقيقة ، ولا تقوم على تدبر ولا تستند إلى علم .

وإذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ببيان القرآن الذى ما بعده بيان ، وما كان لهم من حجة إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا وأحيوهم إن كان ما تقولونه حقا،وهذه لغة الكافرين فى كل زمان، يرفضون الإيمان باليوم الآخر؛ لأنه لم يجئ ميت فيخبرنا، ونسوا أن كلام الرسول المعصوم والقرآن المعجز أقوى وأثبت من كلام أى إنسان، حتى ولو عاد إلى الحياة من الموت ؛ لأنه من يدرينا ـ حتى ولو عاد إلى الحياة أنه صادق ، ولكن الرسول ﷺ قامت كل الأدلة على صدقه ، والقرآن قامت كل الأدلة على أنه من عند الله الذى لا أصدق منه ، وقد أخبرانا عن الآخرة ، ولكنه العمى .

وهنا يأتيهم رد الجليل سبحانه أنه لماذا يأتى الله بآبائهم قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا ؟ أليس الله ينشئ الحياة أمام أعينهم إنشاء فى كل لحظة ، وفق سنه إنشاء الحياة ؟ فهذه هى المعجزة التى يريدون أن يشهدوها فى آبائهم ، ها هى ذى تقع أمام أعينهم ، بعينها وبذاتها ، والذى هو الذى يحيى ، ثم هو الذى يميت ، فلا عجب إذن فى أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب فى هذا الأمر ، الذى يشهدون نظائره فيما بين أيديهم ، ولكن أكثر الناس لا يعرفون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكير فى الدلائل .

ويعقب السياق على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلى الذى ترجع إليه ، فهو المهيمن على كل ما فى الملك، وهو صانع كل شىء فيه،وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل ما فيه وكل من فيه .

ثم يعرض مشهداً من هذا اليوم الذى يشكون فيه ، وتعجل الآية عاقبة المبطلين ، فهم الخاسرون فى هذا اليوم الذى يشكون؛ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التى عمرت هذا الكوكب فى عمره الطويل القصير،وقد جثوا

على الركب متميزين أمة أمة فى ارتقاب الحساب المرهوب ، وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها فى صعيد واحد ، ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب ، ومرهوب بما وراءه من حساب ، ومرهوب قبل كل شىء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل،الذى لم تشكر أنعمه ، ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين،ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق، يقال لها : اليوم تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ، فيعلمون أن لا شىء سينسى أو يضيع ، وكيف وكل شىء مكتوب، وعلم الله لا يند عنه شىء ولا يغيب ؟!ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين يجمعان كل هذه الحشود:الذين آمنوا والذين كفروا،فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله، وهذان هما الحزبان : حزب الله وحزب الشيطان،وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب ،والنص ينهى أمرهم فى سرعة وفى بساطة ، فيلقى هذا الظل المستطاب على من آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة الخالصة الموافقة للشرع .

ثم نلقى بأبصارنا ـ من خلال الكلمات ـ إلى الفريق الآخر ، فماذا نحن واجدون ؟ إنه التأنيب الطويل والتشهير المخجل ، والتذكيربشر الأقوال والأعمال ، فيقال لهم : ألم يأتكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم ؟ بل كانت تتلى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان بها ، ولم تتعرفوا إلى ما فيها وإلى ما تدعو إليه، وكنتم باستكباركم عنها قوما مجرمين على أنفسكم ؛ إذ أفسدتموها بالشرك والمعاصى، وإذا قيل لكم فى الدنيا : إن وعد الله بالبعث والجزاء حق لابد منه ، والساعة آتية لا ريب فى وقوعها ، قلتم ما نعرف أى شىء هى الساعة ، وما تتوهم وقوعها إلا توهما مرجوحاً وما نحن بمتحققين بوقوعها ، فالآن كيف ترون الحال ، وكيف تذوقون اليقين ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التنديد بالهوى والتحذير من اتباعه ، وإلا فهو طريق الهلاك والدمار .

٢ ـ أكثر الناس لا يعلمون لأنهم كذبوا بالوحى الإلهى فى الكتاب والسنة فكن مع الحق .

٣ ـ الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز ، فكن من المؤمنين العاملين .

الجزء السادس والعشرون — سورة الأحقاف

وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون (٣٣)
وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما
لكم من نصرين (٣٤) ذلكم بأنكم اتخذتم ءايت الله هزوا وغرتكم
الحيوة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون (٣٥)
فلله الحمد رب السموت ورب الأرض رب العلمين (٣٦) وله
الكبرياء في السموت والأرض وهو العزيز الحكيم (٣٧)

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء ٢٦ الحزب ٥١

حم (١) تنزيل الكتب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا
السموت والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين
كفروا عما أنذروا معرضون (٣) قل أرءيتم ما تدعون من
دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموت
ائتوني بكتب من قبل هذا أو أثرة من علم إن كنتم
صدقين (٤) ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من
لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غفلون (٥)

٥٠٢

معانى الكلمات :

وبدا لهم : وظهر لهم فى الآخرة .

ننساكم : نترككم .

مأواكم : منزلكم ومقركم .

وغرتكم : وخدعتكم .

الكبرياء : العظمة والجلال .

العزيز : الغالب على كل شىء .

أم لهم شرك : أم لهم شركة .

أثارة : بقية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما يقع للكافرين يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم كيف يكون الجزاء يوم الحساب .

٣ ـ أن نعرف كيف عالجت السورة قضية العقيدة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق على املأ شيئا مما يقع للمنكوبين يوم القيامة ؛ فقد ظهر لهؤلاء الكفار قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات، وما نزل بهم من العذاب والنكال جزاء استهزائهم ، وقيل: اليوم نعاملكم معاملة الناس لكم فى نار جهنم كما نسيتم لقاء يوم القيامة ، فلم تعملوا له ؛ لأنكم لم تصدقوا به ، ونترككم فى العذاب كما تركتم عدة لقاء يومكم ، وهى الطاعة ، ومنزلكم النار ، ومالكم من ناصرين ينصرونكم من بأس الله ،و ما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ، وخدعتكم فاطمأننتم إليها .

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير ، وهم متركون فى جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب ، وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير وقد انتهى المشهد فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير .

يقول صاحب الظلال : « هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧ ﴾ .

ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود ؛ سمائه وأرضه ، وإنسه وجنه ، وطيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد يعلن الكبرياء المطلق لله فى هذا الوجود ، حيث يتصاغر كل كبير ، وينحنى كل جبار، ويستسلم كل متمرد للكبرياء المطلق فى هذا الوجود ، ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

سورة الأحقاف .

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة ، قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود وما فيه ، والإيمان بالوحى والرسالة وأن محمداً ﷺ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

وتبدأ السورة بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها ، تليهما الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به عند الله ، وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ،و على التقدير والتدبير ، فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير .

يقول صاحب الظلال : « وهذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ، وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده ، كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب ، وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير ، فتنزيل الكتاب ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة ، وخلق السموات والأرض وما بينهما وملتبس بالحق ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وبالتقدير الدقيق ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تتحقق فيه حكمة الله من خلقه، ويتم فيه ما قدره له من غاية ، وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته» .